

ملخص

تبحث هذه الدراسة في طبيعة العلاقات بين الجزائر والبرتغال خلال الفترة العثمانية، وكانت هذه العلاقات تحكمها جملة من المعطيات، منها القرب الجغرافي للجزائر من البرتغال، والظهور المبكر لدولة البرتغال في تحقيق وحدتها القومية، وهذا ما جعلها من أوائل الدول الأوروبية التي سعت أن تحصل على موقع لها في الجزائر في بداية العصر الحديث، وفي المرسى الكبير على الخصوص، بعدما سبق لها وأن احتلت مدينة سبتة في المغرب الأقصى سنة ١٤١٥. غير أن فشلها في تحقيق هدفها ودخولها في صراع مع جارتها أسبانيا حول بسط النفوذ على المنطقة المغربية، جعلها في بعض الأحيان تساند أسبانيا في بعض حروبها ضد الجزائر، وذلك يتجلى على الخصوص في حملة شارلكان (١٥٠٠ - ١٥٥٨) على الجزائر سنة ١٥٤١. وأهم ما ميز العلاقات بين البلدين هو حالة العداء المستمر خلال ثلاثة قرون تقريبًا، وهذا يتجلى في المواجهات البحرية بين سفن البلدين في البحر المتوسط، وكذلك في المحيط الأطلسي. وكان الرئيس حميدو أشهر البحارة الجزائريين الذين كانت لهم مواجهات مع البرتغاليين. ومع لجوء أغلب الدول الأوروبية إلى عقد معاهدات سلم مع الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر، اضطرت البرتغال هي الأخرى إلى التخلي عن سياسة العداء ضد الجزائر، والبحث عن عقد هدنة مع الجزائر، وتم ذلك في سنة ١٧٨٥ بوساطة بريطانية، ثم توجت بإبرام معاهدة سنة ١٨١٣ التي أدخلت البلدين في حالة سلم.

مقدمة

كان للجزائر بحكم موقعها الجغرافي المطل على البحر المتوسط علاقات مع مختلف الدول الأوروبية الكبيرة منها والصغيرة خلال الفترة العثمانية، ومن بينها البرتغال التي كانت من أوائل الدول الأوروبية التي حققت وحدتها القومية، وتطلعت إلى الاستعمار مع بداية العصر الحديث. وقد تميزت هذه العلاقات في بدايتها بمحاولات التوسع البرتغالي على الأراضي الجزائرية في القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر. لكن تراجع البرتغال الاستعماري بسبب المنافسة الأوروبية لها، وخضوعها لبعض الوقت للنفوذ الإسباني، قد جعل احتكاك الجزائر مع هذا البلد يقل، وكان لقرارات مؤتمر توردسيلاس في أواخر القرن الخامس عشر دورًا في هذا التبعاد. غير أن الاشتباكات بين بحارة البلدين ظل قائمًا وخاصة في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. وقد سعت البرتغال إلى إبرام معاهدة مع الجزائر من أجل إنهاء حالة التوتر السائدة في البحر، وقد توجت هذه المساعي بإبرام معاهدة سنة ١٨١٣.

ظهور دولة البرتغال ونشاطها البحري الأول

تعد البرتغال من أوائل الدول الأوروبية التي حققت وحدتها القومية مع بداية العصر الحديث، فإثر اعتلاء عرش البرتغال أسرة أفيز، بتولي الملك يوحنا الأول^(١) سنة ١٣٨٥، تمكنت هذه الدولة من تأمين استقلالها بعد انتصارها على القوات الإسبانية، وعقد تحالف



العلاقات الجزائرية البرتغالية خلال الفترة العثمانية

د. عبد القادر فكاير

أستاذ محاضر التاريخ الحديث والمعاصر
قسم العلوم الإنسانية
جامعة خميس مليانة - الجمهورية الجزائرية



الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد القادر فكاير، العلاقات الجزائرية البرتغالية خلال الفترة العثمانية- دورية كان التاريخية- العدد الثامن عشر؛ ديسمبر ٢٠١٢. ص ٢٤ - ٣٠.

www.kanhistorique.org

ISSN: 2090 - 0449

خمس أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ - ٢٠١٢

المرّة، لكن فترة الاحتلال لم تدم طويلاً، إذ تعرضت المدينة لحصار مُحكم لمدة ستة سنوات من طرف الجزائريين، مما أجبر القوات الغازية على الانسحاب من وهران سنة ١٤٧٧.^(١٠) غير أنها ومنذ إبرامها لاتفاقية مع أسبانيا في ثورتيدياس سنة ١٤٩٤، حول تقسيم مناطق النفوذ، حاولت أن يكون لها نصيب من النفوذ في البحر المتوسط، وهو ما سعت من أجله، من خلال محاولتها احتلال المرسى الكبير.

فشل البرتغال في احتلال المرسى الكبير سنة ١٥٠١

حاول البرتغاليون مرة أخرى احتلال المرسى الكبير، غير أنهم لم يتمكنوا من الفوز بها. لقد تطلعت الدولتان الأيبيريتان نحو الأراضي الإفريقية المطلة على البحر المتوسط، منذ بروزهما كدولتان قوميتان في أوروبا، تسعى كل منهما إلى تحقيق الأمجاد القومية. ومن تحقيق هذا المسعى، امتدت أنظارهما إلى هذه الجهات، وخاصةً نحو مدينة وهران التي كانوا يعتبرونها وكراً للمحاربة المسلمين المهاجرين إليها من الأندلس.^(١١) ففي سنة ١٥٠٠ طلب البابا اسكندر السادس،^(١٢) والبنادقة من دولة البرتغال تقديم مساعدات إثر نجاح العثمانيين في استعادة منطقة المورة،^(١٣) التي كانت تحت احتلال جمهورية البندقية. لى ملك البرتغال النداء، حيث أمر بإعداد أسطول يتألف من ثلاثين سفينة مجهزة بمختلف المعدات والأسلحة، وقوات عسكرية تتكون من ثلاثة آلاف مقاتل. وعين على رأس قيادته الدون خوان دي مينيزيس Don Juan de Menezes، ابن كونت مقاطعة بياننا (Viana).^(١٤) كُلفت هذه القوات باحتلال المرسى الكبير، وهي في طريقها إلى شرق البحر المتوسط، على أن يتركوا بها حامية معتبرة تتولى احتلال الساحل.^(١٥)

أُقلعت الحامية من ميناء بلم^(١٦) يوم ١٥ جوان (يونيو) ١٥٠١، وتمكنت من الوصول إلى مدينة وهران دون أن تعترضها صعوبات، غير أن هبوب الرياح الغربية قد أجبرت السفن على الرسو داخل الخليج لمدة ثلاثة أيام. استطاع السكان خلالها اكتشاف الأمر الذي أصبح يهدد مدينتهم، فأعلنوا حالة الاستنفار، واستقدموا من وهران ثلاثمائة فارس، وعدد من المشاة من أجل التصدي لهذا العدوان. وفي يوم ٢٦ جويلية (يوليو)، تغلغلت القوات البرتغالية داخل ميناء المرسى الكبير، حيث شرع قائد الحملة على التو في إنزال جنوده إلى البر، دون أن يلجأ أهل المدينة إلى مقاومتهم، ومنعهم من الإنزال منتظرين الوقت المناسب لبدء الهجوم. تقدمت بعد ذلك القوات البرتغالية نحو أسوار القلعة، وأخذوا في إعداد السلالم لتسلق الأسوار واقتحامها. استغل سكان المدينة ومن جاء لمساعدتهم من رجال وهران والمناطق الأخرى انشغال الغزاة باقتحام القلعة، وبدأوا بالهجوم، كما خرج أفراد الحامية الذين كانوا داخل القلعة في الوقت نفسه، والبالغ عددهم نحو أربعمئة فارس، والعديد من المشاة. فوجد الغزاة أنفسهم محاصرين من مختلف الجهات، وبدأت المعركة بين الطرفين، كانت الغلبة فيها لصالح

مع انكسارهم.^(١٧) وكان التجار وصيادو السمك البرتغاليون قد أبجروا بعيداً عن موطنهم في المحيط الأطلسي قبل القرن الخامس عشر الميلادي. وهذا ما أدى بدولة البرتغال أن تقوم بسلسلة من المغامرات انتهت بكشف العديد من مناطق جديدة، وقد ساعد على هذا النجاح وفرة أدوات الملاحة والسفن المتطورة والاهتمام بعلم الجغرافيا. وبرز اسم هنري الملاح ابن الملك يوحنا الأول، كشخصية قيادية في بروز البرتغال، إذ أسهمت دراساته في خبرات البرتغاليين البحرية، وكان يشجع ويدعم كثيراً من الاكتشافات. وقد شارك في عدة حروب ضد بلاد المغرب، فقد نجح في احتلال مدينة سبتة، غير أنه فشل في احتلال مدينة طنجة.^(١٨)

وصل البحارة البرتغاليون إلى جزر ماديرا سنة ١٤١٩م والآزور سنة ١٤٣١م. وعند وفاة هنري الملاح سنة ١٤٦٠م، كان البرتغاليون قد اكتشفوا الساحل الإفريقي الغربي وتوغلوا إلى الجنوب حيث وصلوا إلى ما يسمى اليوم سيراليون. قام البرتغاليون بفتح وتنصيب شواطئ إفريقيا الغربية منهم وامتدوا على طول الشاطئ الغربي ووصلوا إلى مصب نهر السنغال، وأسسوا به مركزاً تجارياً يحرسه حصن في جزيرة أراغون بالقرب من الرأس الأبيض ومنه أخذوا يتاجرون بالذهب والرقيق، واستطاعوا في سنة ١٤٥٥ أن يحصلوا على امتياز بابوي يخول لهم الانتقال إلى هذه الأصقاع والمتاجرة فيها.^(١٩) وفي سنة ١٤٨١، أسس البرتغاليون في خليج غينيا قصر المينا.^(٢٠) وكانوا في هذا الموقع البحري يشترون الذهب من السكان المحليين، الذين كانوا يجمعونه من الأنهار المجاورة له. وتوالت إثر ذلك الحملات والرحلات والاكتشافات، إلى أن تم التوصل إلى اكتشاف الطريق نحو الهند والعالم الجديد.^(٢١)

وفي نفس الوقت كانت أسبانيا تسعى من جانبها أن تصل إلى الهند عن طريق الاتجاه نحو الغرب، وسرعان ما نشب الصراع بين البلدين، إذ كانت كل دولة تسعى إلى تأمين الأراضي التي اكتشفتها واحتلتها، فتوسط البابا اسكندر السادس، الذي كان أساساً لمعاهدة تورديسلاس (Tordesillas) سنة ١٤٩٤ التي قضت بأن تستولي البرتغال على كل المكتشف شرقي خط وهمي يرسم بطول المحيط الأطلسي على بعد ٣٧٠ ميلاً غربي جزر الرأس الأخضر (يقع الآن على ٤٦° و ٣٧° غرباً)،^(٢٢) في حين يكون لإسبانيا كل ما يقع غربي هذا الخط.

الحملات البرتغالية على وهران والمرسى الكبير قبل مؤتمر نورديسياس ١٤٩٤

ذكر بعض المؤرخين الأوروبيون أن البرتغاليين قد احتلوا المرسى الكبير في ١٤ أوت (أغسطس) ١٤١٥،^(٢٣) وذلك في عهد الملك البرتغالي يوحنا الأول، ولكنها ظلت هذه القاعدة تتعرض دوماً للهجمات التي كانت تشنها القوات الزبانية، ورغم كثرة أفراد الحامية البرتغالية المكلفة بالدفاع عن المستعمرة، فقد تمكن الزبانيون من استرجاعها سنة ١٤٣٧. وفي سنة ١٤٧١ شن الملك البرتغالي ألفونس الخامس^(٢٤) هجوماً جديداً على المنطقة، وكانت مدينة وهران هي المستهدفة هذه

وفي سنة ١٥٥٦ ضرب حسن قورصو مدينة وهران المحتلة من طرف الأسبان، عندئذ أبدت البرتغال رغبتها في نجدة الأسبان، فأمرت سفنها إلى الالتحاق بالسفن الأسبانية الموجودة في مالقة والمتوجهة إلى وهران. وبينما كانت القوات الجزائرية قاب قوسين أو أدنى من تحقيق النصر وتحرير وهران، جاء إلى حسن قورصو رسول من قبل علج علي، يحمل أمراً من السلطان سليمان، بأن يرسل كل السفن بما في ذلك السفن الجزائرية لتدعيم الأسطول العثماني في مواجهة لأسطول ندرى دوريا، الذي كان قد خرب أرخبيل وسواحل المورة، وأصبح يهدد البوسفور. فوجد حسن قورصو نفسه مضطراً إلى رفع الحصار، فأبحرت كل السفن نحو اسطنبول، بينما رجع هو وقواته نحو مدينة الجزائر براً.^(٢٥) وفي سنة ١٧٨٥ سعت البرتغال لإقناع الدول التي كانت في حالة حرب ضد الجزائر بضرورة تشكيل حلف بينها ضد دول المغرب كلها، وفي الدرجة الأولى ضد الجزائر. وكانت البرتغال ضد التحالف الذي جمعها مع بريطانيا وأسبانيا بقصد فرض على داي الجزائر عقد معاهدة سلم دائمة معه، حسبما صرح به وزير خارجية البرتغال سوزا في لشبونة للقنصل الأمريكي يوم ١٢ أكتوبر ١٧٩٢.

المواجهات البحرية في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر

باستثناء هذه المشاركات للقوات البرتغالية في تدعيم الأسبان في فرض سيطرتها على السواحل الإفريقية المتوسطية، فإن المعارك البحرية بين الجزائريين والبرتغاليين كانت تجري على الخصوص في النواحي القريبة من مضيق جبل طارق أو في الأطراف الشرقية للمحيط الأطلسي المحاذية الساحل الأوربي الإفريقي. وكانت تلك المجاهبات قليلة الوقوع خلال القرن السابع عشر والثلاثين الأولين من القرن الثامن عشر. لكنها عرفت تصعيّداً خطيراً خلال الثلث الأخير من القرن الثامن عشر، والعقد الأول من القرن التاسع عشر، وخاصةً بعد إبرام المعاهدة الجزائرية الأسبانية سنة ١٧٨٦.

ولا شك؛ أن ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى رفض البرتغال دفع الضرائب. فقد تمكن البحارة الجزائريون من غنم ستة عشر سفينة برتغالية وأسر ١١٨ أسير، بالإضافة إلى كميات معتبرة من السلع. ومن أجل الوقوف في وجه هذه الضربات المتتالية التي يتعرض لها سكان غرب الأندلس، أقدمت الحكومة البرتغالية على تشكيل أسطول لحماية المناطق الساحلية الحساسة من هجمات البحار الجزائريين. وسعت من جهة أخرى إلى التوصل لإبرام هدنة مع الجزائر عن طريق وساطة مغربية، لكن هذا المسعى فشل. وفي سنة ١٧٩٣ نجحت الوساطة البريطانية في عقد هدنة بين الجزائر والبرتغال، لكنها لم تدم طويلاً. فقد تجددت المواجهات البحرية بين الطرفين ابتداءً من سنة ١٧٩٦، وخاصةً المواجهات العنيفة التي حدثت خلال سنوات ١٧٩٩، ١٨٠٢، ١٨٠٣، وظلت هذه الحروب مستمرة إلى غاية سنة ١٨١٠، حيث كان الرئيس حميدو قائد أغلب

المسلمين، حيث تمكنوا من القضاء على ألف جندي برتغالي،^(١٧) وأسر عدد كبير منهم، بينما تمكن عدد آخر من الفرار إلى مراكهم بصورة فوضوية.^(١٨)

لم يعتبر البرتغاليون بالإخفاق الذي أصابهم، في محاولاتهم لاحتلال المرسى الكبير، فلم يعودوا مباشرةً إلى بلادهم بل واصلوا طريقهم- كما كان مقرراً- في اتجاه شرقي المتوسط، على أمل محو آثار هزيمة المرسى الكبير، والحصول على انتصار هناك يعيد لهم الاعتبار. هكذا، كانت رغبة الملك على ما يبدو، غير أن تلك الأمنية لم تتحقق، ولم تجد العزائم لوحدها في هذه الأمور، لتحقيق الأمان، حيث لم تؤخذ بعين الاعتبار، الحالة النفسية المتهارة التي كان عليها الجنود، إثر هزيمتهم وفقدانهم عدداً كبيراً من رفقاءهم. فلم يتمكنوا من مناصرة الجنود البنادقة، والوقوف في وجه العثمانيين الذين استطاعوا خلال هذه الفترة من فتح مناطق عديدة كانت تحتلها جمهورية البندقية الإيطالية، وتتمثل في دالماسيا، وليبانت، ودورازو (Durazzo)^(١٩) في بحر الأدرياتيك، وكل منطقة المورة، بالإضافة إلى جزر أخرى في الأرخبيل.^(٢٠) وعلى الرغم من إرسال الملك الفرنسي، بعض سفنه الحربية لتدعيم القوات النصرانية، إلا أن القوات العثمانية صمدت في وجه ذلك التحالف، وكاد العثمانيون أن يفتحوا مناطق أخرى كانت تابعة للبندقية، غير أن الأحوال الداخلية للسلطان العثماني بايزيد الثاني (١٤٨١-١٥١٢)^(٢١) أجبرته على إبرام صلح مع المجر في سنة ١٥٠٣.^(٢٢)

لقد سعد سكان وهران والمرسى الكبير بانتصارهم على البرتغاليين والدفاع عن سواحلهم، ضد اعتداءات المسيحيين، لكنهم لم ينعموا طويلاً بتلك السعادة، يسلموا من أخطار أعدائهم، لقد كان عدوان البرتغاليين، مؤشراً لاعتداءات إسبانية، تعرضوا لها بعد سنوات، كانت أكثر خطورة.

الدعم البرتغالي للأسبان في حربها ضد الجزائر

ورث البرتغال نفس الحساسيات الأسبانية ضد الجزائر، وبلدان المغرب كلها، وكان طرفاً في معاهدة تورديسياس مع أسبانيا بمباركة البابوية ضد البلدان المغربية ومنها الجزائر. ولذا نجده دوماً في تيار المد الصليبي ضد الجزائر. ومن هنا كثرة مبادراته في حيك المناورات والمؤامرات ضد الجزائر، ومساعدته لخلق تكتلات حربية ضدها. فإلى جانب أعمال العدوان ضد المرسى الكبير ووهران، كان لهذا البلد بعض النشاط الحربي تمثل في تعزيز الأسطول الأسباني في حملاته التي كان يقوم بها على السواحل الإفريقية المطلة على البحر المتوسط، نذكر منها الحملة على تونس سنة ١٥٣٥ حيث أرسلت سفناً حربية بلغ عددها سبعة وعشرون سفينة تحمل ألفي رجل، تحت قيادة سالدانا (A.de Saldanha).^(٢٣) وكان ضمن الجيش عدداً من الأمراء والنبلاء الأوربيين من بينهم ابن ملك البرتغال الدون لويس (Don Luis).⁽²⁴⁾

١١ ف . ٦٠ سنتيما^(٣٣) وفي شهر أكتوبر من سنة ١٨٠٨، احتجز الرئيس حميدو سفينتين برتغاليتين مشحونتين بالقمح والفحم، وتحملان على متنها أربعة وسبعين رجل، ويقدر المحصول بمبلغ ٤٨٥،٢٠ ف. و ٢٠ سنتيما^(٣٤).

وفي سنة ١٨٠٩، أسند الحاج علي باشا قيادة أسطول يتألف من أربعة سفن، والسماح له بالذهاب إلى المحيط الأطلسي. وكان الأسطول مشكلاً من القطع التالية: حراقة مزودة بأربعة وأربعين مدفعاً، وهي سفينة القيادة التي يركبها الرئيس حميدو. والحراقة البرتغالية عليها أربعة وأربعين مدفعاً آخر يقودها الرئيس أحمد الزميري، وقارب يحمل على ظهره عشرين مدفعاً يقوده مصطفى المالطي. ولما وصل الرئيس حميدو إلى مضيق جبل طارق، تسلل إلى المحيط في جنح الظلام مستغلاً الرياح الشرقية التي دفعته إلى المحيط. وأبدى الأسطول الجزائري قدرته على الإبحار في هذا المسطح المائي الكبير، والمناورات الحربية فيه، حيث استطاع أن يحتجز ثلاثة سفن برتغالية، كان أحدها قادماً من كوبا مشحوناً بالتبغ.

أرسل إلى مدينة الجزائر سفينتين، وأبقى الثالثة معه. وبعد قضاء مدة في المحيط عزم الرئيس حميدو على العودة، ولما وصل أسطوله إلى مضيق جبل طارق ظهرت أمامه أربعة برتغالية سفن كبيرة، منها ثلاث حراقات، تعترض طريقه. عندئذ سارع الرئيس حميدو إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة للوقاية من خطر الأعداء، حيث أعطى الأوامر لاقتراب سفنه من بعضها، ورفع الأشرعة، وتوجيه الصواري في اتجاه الرياح. وأخذت سفنه تتقدم ببطء نحو سفن الأعداء. وخلال هذه الحركة أمر رجاله بقوله: "إذا هاجمت السفينة، يجب أن نرد عليها جميعاً". ولما كادت الحراقات الجزائرية أن تلتقي بالسفينة البرتغالية انحرفت هذه الأخيرة، وبدلت اتجاهها. وقد ذكر أحد الشهود: "أن الجماهير التي كانت ترقب المشهد من بعيد قد صفقت بحماس لتلك المناورة البطولية الرائعة". وبعد أن تحقق أن البرتغاليين لا ينوون اعتراض طريقه، واصل الرئيس حميدو سيره، دون أن يغير اتجاهه، إلى أن ابتعد كلياً عن أعدائه، ثم التحق بالجزائر^(٣٥).

الصلح بين الجزائر والبرتغال

عُقدت بين الجزائر والبرتغال أربع معاهدات:

- (١) معاهدة هدنة سنة ١٧٨٥ بين الداي محمد عثمان، والملكة ماريا الأولى، بوساطة بريطانية.
- (٢) معاهدة هدنة في سبتمبر ١٧٩٣ بين الداي حسن، والملكة ماريا الأولى.
- (٣) معاهدة سلم في ٢٨ سبتمبر ١٧٩٥ بين الداي حسن، والملكة ماريا الأولى.
- (٤) معاهدة سلم يوم ١٤ جويلية ١٨١٣ بين الداي الحاج علي، والملكة ماريا الأولى^(٣٦).

هذه العمليات. وقد أبرمت في هذه السنة هدنة بوساطة بريطانية، ثم أتبعت بمعاهدة سنة ١٨١٣^(٣٧).

الرئيس حميدو في مواجهة البرتغاليين

نسوق في هذا العنوان أهم المواجهات التي قادها البحار الجزائري ضد البرتغال والمعروف بالرئيس حميدو^(٣٨) الذي تجمع مصادر التاريخ ومنها المصادر الغربية بأنه من أعظم الذين عرفهم تاريخ البحرية في العالم. ففي سنة ١٧٩٩ قاد الرئيس ابن تابلوك إحدى السفن من نوع الشبك، تمكن من احتجاز سفينة حربية برتغالية، وأسر تسعة وسبعون كانوا على ظهرها، بالإضافة إلى غنيمة قدرت بـ ٣٨٥ و ٢٩ ف، جاء بهم إلى مدينة الجزائر يوم الجمعة الموافق ٣٠ أوت (أغسطس) ١٧٩٩^(٣٩). وتمكن الرئيس حميدو في ٢٨ مايو ١٨٠٢ أن يقود إلى مدينة الجزائر حراقة برتغالية كانت تحمل على ظهرها مائتي واثنتان وثمانون أسيراً إلى جانب أربعة وأربعين مدفعاً^(٤٠).

وفي نفس السنة التقى الرئيس حميدو بحراقة برتغالية، ولكي يسهل عليه الاستيلاء عليها لجأ إلى مغالطة من كان على ظهرها من الرجال، وذلك برفع العلم الإنجليزي. ولما اطمأن البرتغاليون، سمحوا لحراقة الرئيس حميدو بالدخول إلى مياههم. ولما انكشف الأمر، لم يتمكن البرتغالية من تجنب الوقوع في الاشتباك مع الحراقة الجزائرية. حيث أسرع البحارة الجزائريون بالقفز إلى السفينة البرتغالية، وبعد مدة قصيرة من القتال، تمكنوا من تحقيق النصر والقضاء على مقاومة يائسة، تغلبت عليها عناصر المباغطة وانتشار الفوضى في أوساط البرتغاليين^(٤١).

وفي سنة ١٨٠٣ تمكن الرئيس حميدو على الأسرى البرتغاليين وفيما يلي ذكر لأسمائهم:

- جاكينوا جزييف باراي ديمادو (نائب قابودان برتغالي).
- دومينغو لويس تيودور (ضابط برتغالي).
- مانويل دوماتوس (ضابط برتغالي).
- بوياريان جوفيفو فانتو (قسيس برتغالي).
- جاكينو أنطونيو داكويوتو (طبيب أسباني).
- جيون بانيسستا (ربان برتغالي).
- مانويل لويس فيريرا (ربان برتغالي).
- جاكينو جوزيفو فيريرا (ربان برتغالي).
- جوزيفو جوان (ضابط برتغالي).
- جوزيفو دوس سرتوا آرنتيمو (رئيس المرشحين).
- جوزيفو مانو (ضابط).
- أنطونيو لاسيو (ضابط)^(٤٢).

وفي يوم الأربعاء ١٩ مارس ١٨٠٦ أحتجز الرئيس حميدو سفناً برتغالية وهمبورجية، ويقدر المحصول بمبلغ ٥٩٤ ، ١١٩ ف. ٢٠ سنتيما^(٤٣) وفي السنة التالية (١٨٠٧) تمكن الرئيس حميدو من الحصول على غنيمة برتغالية، باعها في المغرب، بمبلغ قدره ٧٨٧ ،

بين البلدين معاهدة صلح نهائية بواسطة السيد أ. كورت الوزير البريطاني المفوض لدى دول المغرب، وقد احتوت هذه المعاهدة على ستة عشر مادة،^(٤٢) دفعت البرتغال بموجبها إلى الجزائر مبلغًا إضافيًا قدره نصف مليون دولار. كما تعهدت بأن تدفع ضريبة سنوية قدرها ٢٤٠٠٠ دولار، بالإضافة إلى الهدايا القنصلية التقليدية، وهدايا فترة كل سنتين. وعقب عقد هذه المعاهدة، عُين قنصل إنجلترا في الجزائر قنصلًا للبرتغال أيضًا، وهو يتقاضى من أجلها المرتب والمنح العادية.

خاتمة

إن ما يمكن استخلاصه من هذه الدراسة الخاصة بالعلاقات الجزائرية البرتغالية، هو أنها علاقات تميزت بمرحلتين أساسيتين: مرحلة العداء والتوتر، التي ابتدأت منذ أواخر القرن الخامس عشر واستمرت إلى غاية أواخر القرن الثامن عشر، وهي فترة طويلة إذا ما قورنت بفترة السلم والصداقة، التي جمعت ما بين البلدين، والتي دامت من أواخر القرن الثامن عشر إلى غاية الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة ١٨٣٠. وكانت تتحكم في كل فترة ظروف ومعطيات أدت بالبلدين إلى معاشة هذه العلاقات بنوعها، ولعل من أهم تلك الظروف طبيعة التنافس بين القوى المسيحية الأوروبية مع القوى الإسلامية في نطاق البحر المتوسط، والتي تميزت بعدم الاستقرار في العلاقات التي لم تستمر على نمط واحد.

إن ما دعا البرتغال إلى التخلي عن سياسة العداء تجاه الجزائر، هو لجوء أغلب الدول الأوروبية إلى عقد معاهدات سلم مع الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر، فاضطرت هي الأخرى اللجوء إلى حالة السلم مع الجزائر، وبوساطة بريطانية أبرمت معاهدة هدنة في سنة ١٧٨٥، وفي النهاية دخل البلدان في حالة سلم إثر إبرام معاهدة سنة ١٨١٣.

وفي بداية القرن التاسع عشر ظلت البرتغال تناضل من أجل وجودها القومي بعد غزو الفرنسيين لهذه المملكة خلال سنة ١٨٠٨، مما أجبر ملكها على الفرار إلى ريودي جانيرو. وقد نتج ذلك الغزو احتلال جزءًا هامًا من أراضيها، فاضطر ملكها إلى طلب التدخل من بريطانيا، فسارعت هذه الأخيرة إلى تلبية النداء من أجل حماية مصالحها في جبل طارق، والعمل على نجدة حليفها البرتغال، وتعزز التحالف بين البلدين مما أدى إبرام معاهدة تجارة وصداقة بينهما سنة ١٨١٠.^(٣٧) وكانت من جهة أخرى تسعى بريطانيا لربط علاقاتها مع إيالة الجزائر، حيث عملت كل ما في وسعها من أجل أن تحظى بالمعاملة التي كانت تعامل بها فرنسا من طرف الجزائر في أوقات السلم والحرب. وكانت تسعى من جهة أخرى في نية غير معلنة، إلى إفساد التقارب الفرنسي الجزائري، وتعطيل الاقتصاد الفرنسي. فقد استطاعت أن تحصل في سنة ١٨٠٦ على المؤسسات التجارية، وذلك باستغلالها بطريقة غير مباشرة، ترك الحرية فيها لجميع التجار ماعدا الفرنسيين.^(٣٨)

وأمام توتر العلاقات بين الجزائر والبرتغال، التي ميزتها الكثير من المعارك الحربية بين بحارة البلدين خلال العقد الأول من القرن التاسع، حيث تمكن البحارة الجزائريون في كثير من الأحيان التأثير على تجارتها، وغنم العديد من وحدات الأسطول البرتغالي، وأسر العديد من الرجال. وإزاء هذه الأحداث، صممت بريطانيا على استعمال مكانتها في الجزائر لصالح حليفها البرتغال للعمل على تحريرها على الأقل مؤقتًا من مضايقات خصومها. ففي شهر مايو من نفس السنة (١٨١٠) سافر سكرتير المفوضية البريطانية في لشبونة قاصدًا الجزائر حيث أجرى مفاوضات مع السلطات الجزائرية لعقد هدنة، أو بعبارة أدق وضع المواد الأولى لمعاهدة الصلح بين البلدين.^(٣٩) وفي ٦ جويلية من السنة المذكورة توصل الطرفان إلى عقد اتفاقية هدنة بين البلدين لمدة سنتين تضمنت ثمانية مواد، تضمنت قضيتين أساسيتين هما:

الأولى؛ مسألة افتداء الأسرى منهم الأسرى الجزائريين الموجودين في البرتغال، والأسرى البرتغاليين الموجودين في الجزائر. فقد أورد شالر أن نصوص هذه الهدنة تقضي بأن تدفع البرتغال إلى الجزائر مبلغ ٦٩٠٠٠٠ دولار، مضافًا إليه مبلغ ٣٣٧٠٠٠ دولار فدية للأسرى البرتغاليين المحتجزين في الجزائر والذين كان عددهم ٦١٥ أسيرًا.^(٤٠) الثانية؛ وتعلق بنشاط التجار البرتغاليين في الجزائر، حيث جاء فيها أن يستقبل التجار البرتغاليين وبواخهم استقبالًا حسنًا في كل أنحاء الجزائر، وأن يعاملوا مثلما كانت تعامل الجزائر تجار الأمم الأخرى، وفي المقابل يتلقى الجزائريون نفس المعاملة في الممتلكات البرتغالية.^(٤١)

وكانت بريطانيا قد تعهدت بأن تستمر على استخدام نفوذها في الجزائر للحصول على عقد معاهدة نهائية للصلح. وفي غضون السنة التالية دفعت السلطات البرتغالية الفدية، وأطلق سراح الأسرى البرتغاليين المحتجزين في الجزائر. وفي سنة ١٨١٣ عقدت

الملاحق

الصفحتين (٢)، (٣)

من معاهدة سلم وصداقة بين الجزائر والبرتغال سنة ١٨١٣



الهوامش:

- (١) يُدعى يوحنا الأول الكبير، ولد في مدينة لشبونة سنة ١٣٥٧، ابن بطرس الأول العادل، توفي في سنة ١٤٣٣.
- (2) Auguste Bouchot, *Histoire du Portugal et de ses colonies*, librairie de L.Hachette et Cie., Paris, 1854, pp.63-70.
- (٣) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، دار النهضة العربية، بيروت، بدون تاريخ، ص ٤٨.
- (4) G.B Depping, *Histoire du commerce entre Levant et l'Europe*, t.II, Imprimerie Royale, Paris, 1830, P. 260.
- (٥) أصبح هذا البرج فيما بعد نواة لنشأة مدينة سان جورج (Saint-Georges)
- (6) Edouard Septenville, *Découvertes et conquêtes Portugal dans les deux mondes*, E. Dentu, Editeur, Paris, 1863, P.44.
- (7) Bouopda Pièrre Kamé, *Les handicaps coloniaux de l'Afrique noire*, L'Harmattan, Paris, 2010.
- (٨) بينما ذكر المؤرخ عبد الرحمن الجلاي أنها احتلت مرتين من طرف البرتغال، كانت الأولى في سنة ١٤٧٤، استمر وجودهم بها لمدة خمسة سنوات. أما الثانية فقد امتدت بين (١٤٨٣-١٤٨٧). أنظر: الجلاي، ١٩٩٤.
- (٩) يُكنى بالإفريقي ولد في مدينة سينترا سنة ١٤٣٢، تولى الملك في سنة ١٤٣٨، وظل فيه إلى غاية سنة ١٤٨١، حارب في إفريقيا وفي قشتالة، وفي فترة حكمه وصل البرتغاليون إلى غينيا.
- (10) Henri-Leon Fey, *Histoire d'Oran avant, pendant et après la domination espagnole*, Typographie Adolphe Perrier, editeur, Oran, 1858, P.53.
- (11) Jean Cazenave, *Oran cité Berbère*, " B.S.G.O.", t.45, 1925, P. 147.
- (١٢) اسمه الأصلي رودريغو بورجيا، ولد في مدينة خاتيبا في أسبانيا سنة ١٤٣١، تولى البابوية بين (١٤٩٢-١٥٠٣).
- (١٣) وهو الاسم الذي تعرف به منطقة البليوبونيز في اليونان حاليًا من عهد فترة العصور الوسطى إلى القرن التاسع عشر.
- (١٤) تقع في شمال غرب البرتغال.
- (15) Walsin Esterhazy, *De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger*, Paris, 1840, P.114.
- (١٦) يقع إلى الغرب من لشبونة على بعد ستة كيلومترات، كان مكانًا لانطلاق الكثير من المكتشفين البرتغاليين إلى مختلف أرجاء العالم، من أشهرهم فاسكو دي غاما.
- (١٧) حسب تقدير مونتانييس، الذي ذكر أن بعض العرب المسلمين من جبل غيزا (Guiza) بضواحي المرسى الكبير، رواه له: أن المسلمين قتلوا أكثر من ألف مسيحي، وأضاف أن أحد العرب الطاعنين في السن قد أظهر له قطعة رمح حديدية برتغالية، تعود إلى حادثة اندحارهم هناك. أنظر: Montanez, Diego Suarez, *Mers-el-Kebir: Traduit par A. Berbrugger*, Revue Africaine, Tome neuvième, 1865, Office des publications Universitaire, Alger, pp.262-262.
- (١٨) بينما ذكر كازيناف أن البرتغاليين تراجعوا بفعل مطاردة المسلمين لهم نحو مراكمهم دون أن يتخلف منهم أحد، ولم يشر إلى أي قتيل برتغالي. أنظر: Cazenave, Op. cit., p.148.
- (١٩) الاسم الإيطالي لمدينة دوريس (Dures) في ألبانيا.
- (20) Montanez, Op.cit., p. 261.
- (٢١) حيث تعرض لعصيان من قبل أبنائه في الأناضول شغله عن الاستمرار في الحرب.
- (٢٢) محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط.٢، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٨٥.
- (23) Ernest Mercier, *Histoire de l'Afrique septentrional*, t.3, Ernest Leroux, Paris, 1888, p. 37.
- (24) Belhachemi, Jean Luis: *Barberousses corsaires et rois d'Alger*, Fayard, Paris, 1984, p.305.
- (25) Didier, L.: *Histoire d'Oran* t.5, : Imprimerie L. Petit. Oran, 1929, p.34.

- (٢٦) عبد الحميد زوزو، هدنة ١٨١٠ ومعااهدة سنة ١٨١٣ بين الجزائر والبرتغال، مجلة التاريخ، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، العدد ١١، ١٩٨١، ص ٢٣ - ٢٤.
- (٢٧) اسمه الحقيقي هو محمد بن علي إلياس المدعو حميدو، ولد في قصبة مدينة الجزائر سنة ١٧٧٣، ينحدر من عائلة تنتمي أصولها إلى مدينة يسر الواقعة إلى الشرق من مدينة الجزائر على بعد ٦٠ كلم. استشهد في سنة ١٨١٥ بحرية مع البرتغاليين.
- (28) Devoulx, Albert: *Le Rais Hamidou*, Typographie Adolphe Jordan, Alger, 1859, pp. 97 - 98.
- (29) Ibid., pp. 86 - 87.
- (30) Ibid., pp., 90.
- (31) Ibid., p. 90.
- (32) Ibid., p.106.
- (33) Ibid., p. 107.
- (34) Ibid., p.108.
- (٣٥) أحمد الشريف الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص ١٠٦٠.
- (٣٦) مولود قاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العامة قبل سنة ١٨٣٠، ج.١، ط.٢، دار البعث، قسنطينة: ١٩٨٥، ص ٩١ - ٩٣.
- (٣٧) زوزو، مقال سابق، ص ٢٥.
- (٣٨) دوفال، ألبير: الرئيس حميدو، تعريب الدكتور محمد العربي الزبيري: ENAP، الجزائر، ١٩٧٢، ص ٤٠.
- (٣٩) شالر، وليم: مذكرات وليم شالر قنصل أمريكا في الجزائر (١٨١٦ - ١٨٢٤)، تعريب وتعليق وتقديم، إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٢، ص ١٣٦.
- (٤٠) نفسه، ص ١٣٦.
- (٤١) أنظر: نص المعاهدة في زوزو، مقال سابق، ص ٣٣ - ٤١.
- (٤٢) أنظر: النص الكامل لهذه المعاهدة في زوزو، مقال سابق، ص ٣٣ - ٤١.